الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشعبيّة وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم مستغانم كليّة الآداب والفنون قسم اللّغة العربيّة وآدابها العنوان:

أثر التّنغيم في توجيه دلالة القرآن الكريم

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور: جيلالي بن يشو إعداد الطّالبة: رشيدة بودالية

أعضاء لجنة المناقشة:

- د. أ. مختار لزعر: رئيسا. جامعة مستغانم.
- د. أ. جيلالي بن يشو: مشرفا ومقرّرا. جامعة مستغانم.
 - د. أ. عبد الجليل مرتاض : مناقشا. جامعة تلمسان.
 - د. أ. عبد الحليم بن عيسى: مناقشا. جامعة و هران.
 - د. أ. لخضر العسّال: مناقشا جامعة مستغانم.

السننة الجامعيّة 2008م - 2009م

من الحقائق المسلّم بها – والّتي أكّدتها اللّسانيّات – الطّبيعة الصّوتيّة للّغة، وأنّ الصّوت اللّغويّ هو حياة اللّغة وبقاؤها، وقد أدرك علماء اللّسانيّات – قديما وحديثا – هذه الحقيقة؛ فأعطوها حظّها من العناية والإهتمام والجهد. وأصبحت الدّراسات الصّوتيّة اليوم علماً متعدّد الجوانب، واسع الأبحاث، يقدّم خدماتٍ جليلةً في دراسة اللّغة على المستويين العامّ والوظيفيّ، وذلك لما يمثّله الصّوت اللّغويّ من صورة حيّة للّغة؛ لأنّ اللّغة الّتي لا تُنْطَقْ لغة ميّتة.

إنّ هذه العناية بالجانب الصّويّ كان للعرب المسلمين الحظ الأكبر والرّيادة فيها؛ حين أدركوا أنّ سلامة القرآن الكريم مرتبطة بسلامة اللّغة العربيّة وبقائها. إنطلاقاً من هذا المبدأ نشطت الجهود العربيّة لتتبّع الظّواهر اللّغويّة في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز سواء في نظمه، أو لفظه، أو صوته، أو معانيه، و نال دراسات حوله لم ينلها كتاب في الدّنيا، ومازال إلى يومنا هذا يستقطب إهتمام الكثير من الباحثين.

إنّ إهتمام العرب بالدّراسة الصّوتيّة في القرآن الكريم؛ غايته الحفاظ على تجويده وتلاوته، والوقوف على معانيه، و إستنباط أحكامه الشّرعيّة. والأساس في تلقي القرآن الكريم كان شفاهيّا؛ بل إنّ خاصيّة المشافهة في تلقيه كانت شرطا إشترطه العلماء المسلمون؛ حفاظا على سلامته ونقاوته.

ومن ثمّ كان الحفاظ على أداء القرآن الكريم أداءً سليماً من أهم واجبات الباحثين؛ فإستطاع بذلك علماء العربيّة الأوائل أن يقنّنوا نُظُماً للنّطق السّليم، والأداء القويم في القرآن الكريم، وهو دور رائد - بإعتراف غير العرب أيضا- قاموا به.

لقد كان منهج علماء العرب في اِستقراء البحث الصّوتيّ عن طريق المشافهة، وهو منهج علم القراءات، والتّجويد في تلقي القرآن الكريم؛ لأنّ ذلك يساعد على تمثّل المعنى، كما يظهر ما يحتويه من ظواهر صوتيّة يُتَصَوَّرُ معناها من نطقها؛ خاصّة إذا أدّينا الإلقاء حقّه.

يتوقّف القرآن الكريم على تلك الميزة الصّوتيّة المتمثّلة في حسن التّلاوة، والجسّدة في قول الرّسول — صلى اللّه عليه وسلّم — : "جَوِّدُوا الْقُرْآنَ وَزَيِّنُوهُ بِأَحْسَنِ الْأَصْوَاتِ"، وليس المقصود به التّطريب، ولكنّه الإلتزام بالنّطق الصّحيح، ومراعاة قواعد التّلاوة من مدّ، ووقف، ونبر، وإيقاع، وتنغيم؛ لأنّ ذلك من حسن التّلاوة الّذي يزيّن القرآن، ويبرز دور هذه الظّواهر الصّوتيّة في أداء معانيه.

¹⁻ رواه أحمد وإبن ماجة، والنسائيّ، والحاكم، ينظر: الإتقان في علوم القرآن، الإمام بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشيّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دمشق، دار إحياء الكتاب العربيّ، منشورات عيسى البابيّ الحلبيّ، ط3، 1400هـ 1980م، ج1، ص: 281.

من هذه الظّواهر اللّغويّة المؤدّية للمعنى في اللّغة العربيّة عامّة، والقرآن الحكيم خاصّة ظاهرة التّنغيم - Intonation وهي ظاهرة صوتيّة لا تحدث من إختلاف درجات الصّوت المتمثّلة في اِرتفاع النّغمة، أو هبوطها فقط، بل تحدث أيضا من خلال ما يحيط بالنّطق من نبر، ووقف، وسكت، وإيقاع، ومدّ ...

تتمثّل الأسباب الذّاتيّة الّتي دفعتني لهذا الموضوع في رغبتي الشّخصيّة إلى معرفة ما يؤدّيه التّنغيم من معنى؛ خاصّة عندما يتعلّق الأمر بتطبيق هذه الدّراسة على القرآن الكريم. أمّا الأسباب الموضوعيّة فتتمثّل فيما أثبتته الأبحاث من أنّ قضايا وظواهر علم الأصوات عند العرب قديما؛ نجدها متناثرة في مؤلّفات متنوّعة الإختصاصات من نحو ولغة وبلاغة وقراءات وتجويد؛ لذلك رأيت أنّه من الضّروريّ الإستفادة من هذه الأبحاث في تراث الأوائل، وتسخيرها في هذا البحث.

كما أنّ البحث في اللّغة يحتّم علينا دراستها على أكثر من مستوى لتكون الدّراسة علميّة، والتّنغيم ظاهرة صوتيّة تحمل دلالة في الجملة العربيّة؛ تؤدّي دراسته إلى الجمع بين المستويات اللّغويّة بدءا من الصّوت، ثمّ الإرتقاء إلى دلالته؛ ممّا يثبت علاقة هذه الفروع بعضها ببعض، ويُمكّن من فهم وتحليل اللّغة.

وبعد المقارنة والمراجعة وإستشارة الأستاذ المشرف؛ إستقررت على عنوان تبيّن لي أنّه يعبّر عن مضامين هذا البحث وهو: أثر التنغيم في توجيه دلالة القرآن الكريم.

يرى علماء اللّغة أنّ التّنغيم يسعى إلى ضبط العلاقة بين ظاهر القول ومضمون القصد، وأنّ عدم إتقانه يؤدّي إلى عدم الوضوح، وأنّ أداءه على أحسن وجه لا يكون إلاّ بإتّباع سنن أهل اللّغة في النّطق والتّعوّد على مجاراتهم، والسّماع للقرّاء والجودين:

- فهل للتنغيم أهميّة ودور في تعيين الدّلالة في النّص القرآنيّ؟
 - وما أثر التنغيم في توجيه المعاني في كلام الله تعالى؟
- وهل أدرك العلماء العرب مفهومه ودوره وتأثيره على دلالات الجمل العربيّة ؟

لقد حظيت ظاهرة التنغيم بعناية الكثير من الدّارسين، وكان تناولهم لهذه الظّاهرة لما تستبعه من مسائل صوتيّة ونحويّة ودلاليّة، من ذلك دراسة ماجستير لهايل محمد طالب بعنوان - التشكيل التنغيميّ في المنظومة اللّغويّة العربيّة - سنة 2001م، حمص، جامعة البعث، والّتي قسّمها إلى قسمين نظريّ ومخبريّ.

في القسم النّظريّ حدّد مفهوم مصطلح التّنغيم عند العديد من الدّارسين ودوره اللّغويّ، وميّز بين حالتين من التّنغيم:

الأوّل: إبلاغيّ يقوم بإخبارنا أنّ العبارة قد إكتملت أم لم تكتمل، وهل العبارة سؤال أم جواب أم خبر.

القّاني: شعوريّ اِنفعاليّ، والّذي يقوم فيه التّنغيم بنقل شحنة محدّدة تعكس ما لدى المتكلّم من حالة شعوريّة النفعاليّة لها تأثير على المستمع.

أمّا القسم المخبريّ فقد قسّمه إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة إعداد المادّة الصّوتيّة.

الثّانية: مرحلة تحليل المادّة الصّوتيّة بعد إجراء التّجارب المخبريّة.

و لقد إحتهدت في بحثي هذا أن أبيّن دلالة التّنغيم؛ فالجملة الواحدة صالحة لأن تقال بنغمات مختلفة، ويتغيّر معناها مع كلّ نغمة. وقد طبّقت هذه الظّاهرة الصّوتيّة الّتي تصاحب التّركيب على جملة من الآيات القرآنيّة؛ مستندة في ذلك على إشارات القدامي من العرب، ودراسات المحدثين، ولاحظت أنّ علم الوقف له صلة قويّة بالتّنغيم، وذلك أنّه عندما نقف في نهاية الجملة بنغمة معيّنة؛ فإنّنا ندرك من خلالها المعنى الّذي تحمله؛ الأمر نفسه بحده مع الوقف في القرآن الكريم. كما أنّ فهم كلام اللّه تعالى لا يتحقّق إلاّ بالوقف، ولا يدرك معناه إلاّ به، ومَنْ لم يهتم به يقف قبل تمام المعنى، فيفهم خلاف المراد من الآية القرآنيّة؛ إذ إنّ المعنى يتغيّر تبعا لمواطن الوقف في الكلام.

تهدف هذه الدّراسة إلى تبيان دور التّنغيم في تحديد الدّلالات في كتاب الله – عزّ وجلّ فيتحقّق لنا بذلك أداء قراءته أداء سليماً صحيحا بعيداً عن الخطأ واللّحن، ولا يتسنى لنا ذلك إلاّ بإعطاء أهميّة بالغة لعلم الأصوات في دراسة اللّغة العربيّة الفصحى من كلّ جوانبها؛ دراسة دقيقة غير ناقصة، وتحديد النّظام العامّ الّذي تؤدّى به، وفق النّوق العربيّة العربيّة وكتابها المنزّل السّلامة والحفظ.

بنيت الموضوع من مقدّمة، ومدخل، وأربعة فصول، وحاتمة.

شملت المقدّمة إحاطة عامّة ومجملة للموضوع.

تعرّضت في المدخل إلى - الدّراسات الصّوتيّة عند العرب قديما وحديثا - ومستويّات الدّرس الصّويّ الّتي تعتبر فرعا من فروع علم اللّسانيّات، والمتمثّلة في علم الأصوات العامّ الّذي تقوم عليه كلّ لغة، وعلم الأصوات الوظيفيّ الّذي يعنى بالصّوت في إطار السّياق اللّغويّ.

تعرّضت في الفصل الأوّل إلى - التنغيم: المصطلح والماهيّة - وذلك بتعريفه لغة وإصطلاحا، وأشرت إلى ما تناوله علماء اللّغة من فرق بين مصطلحات (النّغم - التّنغيم - النّغمة - الإيقاع - اللّحن)، وتحدّثت أيضا عن أنواع النّغمات؛ والمتمثّلة في النّغمة الهابطة، والنّغمة المتوسّطة، والنّغمة الصّاعدة، وأنّ كلّ واحدة منها تؤدّي نمطأ صوتيّاً معيّناً، فيشكّل نمطاً تنغيميّاً له تأثيره ودلالته.

ووقفت على مكوّنات التّنغيم، حيث بيّن علماء الأصوات أنّ له مكوّنات في تشكّله، وهي: النّغميّة Mélodie ، الّتي يكوّنها إرتفاع جرس الصّوت وإنخفاضه.

والشَّدّة Intensité، وهي مكوّن إيقاعيّ حركيّ Jynamique.

والطّول والسّرعة Tempo، والمتمثّل في المكوّن الزّمنيّ.

والوقف Stop، وهو القطع في النّطق بأطوال مختلفة.

والحدّة Tembre، وتتمثّل في تلوينات الكلام الشّعوريّة والإنفعاليّة.

وقد تحدّثت في الفصل الثّاني عن - التنغيم ومظاهره في الدّرس اللّغويّ العربيّ بدءا بالتّراث اللّسانيّ العربيّ القديم، وقد اِستثمرت آراء المحدثين الّتي اِنقسمت إلى قسمين، يرى قسم بأنّ العرب لم يتناولوا هذه الظّاهرة، ولم يدرسوها، ولم يلتفتوا إليها.

وقسم ثانٍ يرى أنّ علماء العربيّة قديما تناولوا التّنغيم، إذ توجد إشارات في كتبهم توحي إلى ذلك، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد.

ثمّ تطرّقت إلى التنّغيم عند المحدثين - خاصّة العرب - الّذي أصبح مجال إهتمام العديد منهم؛ جاعلين منه ظاهرة صوتيّة موجودة في اللّغة المنطوقة، تقوم بتفسير قضايا لغويّة، أمّا اللّغة المكتوبة فيقوم التّرقيم مكان التّنغيم في الدّلالة على المعنى.

أمّا الفصل الثّالث فقد تناولت فيه - التنغيم ودلالته في القرآن الكريم - وذلك لبيّان أنّ تلاوة آيّ القرآن الحكيم لا تتمّ بطريقة صوتيّة واحدة وإنّما تتغيّر؛ و أنّ دلالاتها ليست واحدة، فهي متنوّعة ومتعدّدة، لذا يجب على القارئ أن يعطى لكلّ آيّة أداء تنغيميّا معيّنا؛ يتناسب مع المعنى الّذي تحمله.

إنّ مراعاة الختلاف التّنغيم من آية إلى أخرى أثناء القراءة؛ هو نوع من التّأثير على المستمع، وسبيل لوقوفه على المعاني الّتي تحملها الآيّات الكريمات، وقد أدرك العلماء هذه الحقيقة حين عرّفوا التّجويد، ووضعوا له قواعده، وأحكامه، وبيّنوا كيفيّة التّلاوة؛ الّتي تحقّق حسن البيان، وجودة الأداء.

وتطرقت في الفصل الرّابع إلى - دلالة الوقف في القرآن الكريم - بدأت بتعريف الوقف لغة وإصطلاحا، ثمّ أشرت إلى أهميّته و أنواعه في القرآن الكريم، كما تحدّثت عن قيمته في تأدية المعنى، و إرتباطه بالتّنغيم، ونجد العلماء من أئمة القراءات والتّحويد بيّنوا معاني كلام الله - عزّ وجل " بالوقف، وجعلوه منبّها للمعنى، ومفصّلا بعضه عن بعض.

يعتبر الوقف من الموضوعات الّتي لابد لقارئ القرآن الكريم من معرفتها، ومراعاتها في قراءته، حتى تتّفق قراءته مع وجوه التّفسير، وصحّة اللّغة، وشرف المعنى.

أنهيت بحثى بخاتمة أودعت فيها جملة من النّتائج الّتي توصّلت إليها.

القتضت طبيعة الموضوع أن أستعين بالمنهج الوصفيّ باعتباره الأنسب في وصف ظاهرة التّنغيم، ثمّ الاستعانة بالمنهج الاستقرائيّ في الكشف عن الدّلالة الّتي تؤدّيها في جملة من آيات القرآن الكريم.

تستلزم عمليّة البحث جمع المادّة للإستناد عليها، وقد تنوّعت مادّة هذا البحث من مصادر ومراجع، بدءاً بأمّات الكتب اللّغويّة مثل: كتاب العين للخليل، والكتاب لسيبويه، وكتابيْ: الخصائص، وسرّ صناعة الإعراب لإبن جنيّ، وكتب القراءات والتّحويد مثل: النّشر في القراءات العشر، والتّمهيد في علم التّحويد لإبن الجزريّ، وكتب التّفسير مثل: الكشّاف للزّمخشريّ، ومفاتيح الغيب للرّازيّ، وكتب الفلاسفة مثل: الشّفاء لإبن سينا، وفي الخطابة للفارابيّ.

كما استعنت بالدّراسات اللّغويّة الحديثة مثل: الأصوات اللّغويّة لإبراهيم أنيس، واللّغة العربيّة معناها ومبناها، ومناهج البحث في اللّغة لتمّام حسّان، والتّشكيل الصّويّق لسلمان العانيّ، والأصوات لكمال بشر، والوقف والإبتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم لعبد الكريم صالح، والدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد لغانم قدوري الحمد.

ورغم ما توفّر لدي من مادّة للبحث إلا أنّني واجهت صعوبات في إنجازه، بحيث أنّه قلّما نجد دراسة شاملة حول التّنغيم في القرآن الكريم، بالإضافة إلى ندرة الدّوريات والمجلّات الحديثة - ولا سيما في وطننا - المواكبة للبحوث الحديثة، والّتي من شأنها أن تطلعنا في الآن على كلّ جديد في الموضوعات والدّراسات القرآنيّة.

لا يسعني في الختام إلا أن أتوجّه بجزيل الشّكر إلى الأستاذ المشرف الدّكتور: جيلالي بن يشو على ما قدّمه لي من مساعدات، وتوجيهات قيّمة مكّنتني من إنجاز هذا البحث، وأتقدّم - أيضا - بشكري الخالص لجميع أساتذة قسم اللّغة العربيّة وآدابها جامعة مستغانم الّذين لم يبخلوا عليّ بالنّصائح والتّشجيع طوال مسيرتي في البحث.

هذا مبلغ جهدي فإن وفّقت فمن الله تعالى، وهي نعمة منّها عليّ؛ فله الحمد الكثير، والشّكر الجزيل، وإن لم أوفّق؛ فهو منيّ وهي سنّة الله في خلقه أن يكون العمل البشريّ دائما ناقصا؛ يحتاج إلى إتمام وإكمال.

مستغانم في: 18 من ذي الحجّة 1429هـ الموافق له: 16 من ديسمبر 2008م.

الطّالبة: رشيدة بودالية.